16

نزهة في رام الله

ليلة أخرى نقضيها في القدس قبل الرحيل إلى رام الله. حواجز قلنديا تبطىء حركة المرور، وتجعله على مرمى نظري. الجدار! هائل، ضخم ونصفه لم يكتمل بعد! الناس من حوله يروحون ويجيئون، يمرون ويتجمعون ثم ينتهون في ممرات طويلة، لا علاقة لها بتلك التي نعبرها في مطارات العالم المتقدم! هنا، هي أقفاص نتقدم فيها ونتراجع، الناس داخلها مسحوقون من الإرهاق ومع هذا يرتسم على سحناتهم هدوء مستسلم وهم يعبرون ويتجاوزون كل العوائق والحواجز، يدرون من أين وإلى أين وجهتهم. الجنود منزرعون في كل الأرجاء يحيطون بالمشهد العام ويشكّلون جزءًا منه، كأنهم قطعة ديكور لا غنى عنها، لكنهم ليسوا وحدهم! تزاحمهم عربات خضار وفواكه وبضائع من شتى الأنواع تعرض على العابرين كل

ما يلزم ومالا يلزم من كؤوس الشاي وفناجين القهوة إلى الشحّاطات والأجهزة الرياضية وحتى أزياء زورو وسوبرمان تنضم إلى المعروضات. يعلو صوت البائعين بالغناء وهم يروّجون لبضائعهم، والشمس لفحت وجوههم المتربة، **كأنهم يحملون معهم شيئًا من تراب الأرض أنى يتوجهون، كأنهم بهذا ينقذونه من السلب**. أشعر بحب نحوهم وهم يرددون "شيل، شيل، يالله شيل..." وأسأل نفسي إن كنت ساذجة وحمقاء وشعور كهذا يغمرني.

أتقدم بينهم على مهل، أحييهم بنظرة، بابتسامة، أخطو للأمام أدعس بقوة على نعليّ وأنا أجتاز أكمة تراب رصّها العدو متعمدًا هنا وهناك لإبطاء حركة العبور.

نصل رام الله عاصمة الضفة الغربية أخيرًا. مدينة عربية بامتياز تختلط فيها المتناقضات، بين انسيابية وعجقة، عجلة وتمهل، يتزاحم مشاة وسيارات في فوضى لامتناهية على وقع سيمفونيات من الزمامير، وتشارك لوحات دعائية بهذا المشهد العبثي لتضيف له بعدًا وابتكارًا بلغاتها العديدة ولاسيما منها الأسماء الانكليزية المكتوبة بالعربية أو العربية المكتوبة بأحرف لاتينية. ازدحام عجيب في مركز المدينة يطلقون عليه هنا تعبير: أزمة. السائقون يرددون في كل مرة عبارات كهذه: "سنتحايل على الأزمة، لن نخوض في الأزمة، نكره الأزمة..."

في رام الله تتمركز القيادة الفلسطينية التي أتت من تونس وغيرها بعد اتفاق أوسلو. الجزائريون، شعبي الثاني بالتبني، كانوا سيصفون هذه المدينة

بـ"تشيشي" أي مدينة المدللين، فسكانها من الأطر العليا من النومنكلاتورا(*) نوعًا ما. كثير منهم يسكن فيلات فخمة مع خدم وسائقين. رام الله كانت غنية قبل وصول السلطة إليها بفضل هجرة قديمة ومهمة لأبنائها للأمريكيتين، استقروا هناك منذ آواخر القرن التاسع عشر. موجة من المهاجرين ناجحة في معظمها جلبت الثروة للبلد.

زرنا المدينة مع زياد وهو سائق لزوجين من أصحابي يحتلان منصبًا رفيعًا في السلطة الفلسطينية، كنت تعرفت عليهما في تونس... إنه رائع، يضحك من أعماق قلبه لكل مناسبة ويقودنا بسرور في كل أرجاء رام الله، من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها. يصحبنا لزيارة جامعة بيرزيت وقرى الأجداد المبنية بالحجر الأبيض، ولا ينسى مخيمات اللاجئين المتواضعة هنا وهناك داخل المدينة وخارجها مثل جلازون والأمعري وقدورة. النظرة الأولى لها لا تبديها بائسة حقًا فهي تشابه أي حي فقير في ضواحي أية مدينة عربية لكن السكان هنا لاجئون. سأعفي نفسي من شروحات تاريخية عن اللاجئين الفلسطينين!

زياد يرى بأن علينا ألا نتأثر مما نرى، فهؤلاء اللاجئون، يتسلمون إعانات وقضيتهم تثير اهتمام العالم بأجمعه. إنهم برأيه وباختصار: مدللون! حسنًا، هذا رأيه، لكني أظن أنه يشعر بالغيرة منهم وأن ثمة منافسة بين الفقراء. وها هو يعقّب:

(*) Nomenklatura (بالروسية: номенклатура) هو مصطلح روسي، استخدم بلغات الدول الشيوعية الأخرى، لتسمية نخبة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشيوعية. في الصين فإن التعبير المكافئ هو الأمراء الحمر.. ويكبيديا الفرنسية.

– تعرفين، هؤلاء يشترون أثاثًا جديدًا أما نحن فنلجأ لشراء "سكند هاند" (مستعمل).

زرنا المقاطعة حيث يُحاصر الرئيس عرفات وقد أصبحت أثرًا بعد عين. على إحدى الواجهات المنهارة مازالت أجزاء من شرفة يجلس عليها ما يمكن اعتباره رجال شرطة يشربون الشاي وهم يتمازحون. زياد يخبرنا أن الرئيس يعيش خلف هذه البقايا وهو محمي جيدًا ويعمل لإدارة هذه الفوضى التي لا اسم لها. كنا في الفترة التي تلت الانتفاضة الثانية.

على الرغم من ضوء النهار، شعرت أنني أخطو في العتمة... أحيي بهزة من الرأس أو بإشارة من اليد كل الناس، ونغادر المكان.